الشيخ أبو الحسن وتطور اللغة العربية

إن الحياة متطورة متغيرة كما تتغير الطبائع والأزمان، ولايعتور التطور الحياة والطبيعة والزمان فحسب، بل ينتاب العلم والأدب والثقافة والحضارة، حتى القانون والشريعة، فلاينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان، نشاهد نحن سكان الأرض تطورا في كل صباح ومساء، ونواجه تغيرا كل ليلة ونهار، وتلك سنة الله، ولا تجد لسنة الله تبديلا، والتطور هو الذي جاء بألوان من الحياة الإنسانية، منذ أن هبط الإنسان على هذه البسيطة إلى أن نما وترعرع ونهض وتقدم، فنشأت مجتمعات إنسانية ذات علم وفن وأدب وثقافة وحضارة ومدنية، تمتع فيها بنو آدم وصنعوا، وبنوا وشيدوا صروحا شامخة في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان، وهذه هي طبيعة البشر وفلسفة الحياة، وأما نحن طلاب اللغة العربية وآدابها فنمر ببدو اللغة إلى عصرنا هذا بتطورات لغوية وأدبية، وتاريخية نقدية دراسية من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث والمعاصر، وهذه هي سنة الله أيضا ولن تجد لسنة الله تحويلا.

لست أريد هنا أن أحكي لكم قصة اللغة العربية عبر التاريخ فلها مجال آخر، ولكنني لابد لي من وقفة قصيرة عند اللغة العربية وآدابها، التي جلبت موارد عذبة غنية، ومناهل صافية ثرية، سقت وروت روافد من العصر الأول إلى أن امتزجت بها مياه أعجمية كدرة، أو لوثة الصناعة والتملق والوشي والتطريز، فقد كان أدبا طبيعيا جميلا تحلت به الكتب والرسائل لأساطين العلم والأدب، تشهد بعبقرية اللغة العربية وعالميتها، وقد أشار إليها رائد الأدب العربي في العصر الحديث بالهند الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله، فيقول:

«إن هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة وطويلة، وكلها أمثلة جميلة للغة العرب العرباء، التي كانوا يتكلمون بها ويعبرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم، ويجد دارس الأدب العربي فيها من البلاغة العربية، والقدرة البيانية والوصف الدقيق، والتعبير الرقيق، وعدم التكلف والصناعة ما يقف أمامه خاشعا معترفا للرواة بالبلاغة والتحري في صحة النقل والرواية، وللغة العربية بالسعة والجمال» (مقدمة مختارات، ص٨).

ولكن الأدب العربي كما ذكرنا أصيب بلوثة أعجمية ذهبت بروائه وبهائه. وقيدته بسلاسل وأغلال، أفقدته حريته وانطلاقه وخفة روحه وجماله، وذلك بنبوغ أدباء وكتاب تربعوا على عرش الأدب العربي، أمثال أبي إسحق الصابي وابن العميد والصاحب بن عباد والخوارزمي والهمذاني والمعري، فاخترعوا أسلوبا للكتابة اختلف عما سبقهم، كانت الصناعة والسجع والبديع تغلب عليهم، وجاء بعدهم أبوالقاسم الحريري بمقاماته بنفس الأسلوب المسجع، بل غلا فيه وتلاعب بالألفاظ المنمقة والكلمات المطرزة، وسار القاضي الفاضل على هذا الدرب، ونهج هذا المنهج، الذي ورثه من الهمذاني والحريري، وكانت له دولة وصولة؛ فسيطر على الأوساط الأدبية وتحكم في هذا الأسلوب الكتابي الفريد، فقلده الأدباء والكتاب الذين خلفوهم فانشغلوا به، فأصيبوا وأصيبت اللغة العربية بالجمود والعقم. إلى أن أمسك زمام الكتابة في اللغة العربية ابن خلدون، وفي شبه القارة الهندية الإمام ولي الله الدهلوي رحمهما الله، واختارا أسلوبا طبيعيا متدفقا بالحياة والقوة والجمال، أولهما في «المقدمة» وثانيهما في «حجة الله البالغة»، فانتعش الأدب ونما وترعرع، وبرز في العصر الحديث يستعيد قيمته ومكانته وحيويته ونشاطه، ولكن المعاهد والمدارس كانت لاتزال تتشبث بذلك المنهج والمقرر الدراسي القديم، الذي لم يكن يستغني عن الحريري ومقاماته، وزاد الطين بلة حينما ألف أديب هندي كتابا لتعليم اللغة العربية لواحد من سادته الإنجليز «نفحة اليمن»، فلم يكن الكتاب إلا دمية يلهو بها طالب ومدرس، أو لعبة يتسلى بها دارس في أوقات الفراغ والتسلية، ولم ينتبه إلى وضع منهج جديد

ن الندوي..
ة وآدابها

بقلم الدكتور:
محمد اجتباء
الندوي

في ضوء أدب الإمام الدهلوي وأولئك الذين كانوا يحمدون فعلته ويعتبرون أنفسهم تلامذته، بل إنهم غضوا النظر عن تلك الثروة الأدبية الزاخرة، ولم يستفيدوا ولم يكونوا يتعلمون إلا نادرا كما أشار إليه العلامة الشيخ عبدالحي الحسني رحمه الله في رسالته «المقررات الدراسية لمدارس الهند وتطوراتها» وأسف لهذا الموقف المؤلم الشيخ الندوي رحمه الله وقال : «وقد جنى هذا الإهمال على اللغة والأدب، وعلى الكتابة والإنشاء وعلى التأليف والتصنيف، وعلى التفكير، فقد حرمه مادة غزيرة من التعبير وباعثا قويا للتفكير» (مقدمة مختارات ص١٧).

وحقا أدى بدارسي هذا المنهج إلى أنهم لم يكونوا يقدرون على إبداء ما يجيش في صدورهم من خواطر وأفكار، في هذه اللغة الكريمة، وقد قال عنهم أحد كبار العلماء الهنود : إنهم يعرفون عن اللغة العربية كثيرا ولايعرفون اللغة العربية!!

لأجل هذا جعل الدعاة والمؤسسون لحركة ندوة العلماء بالهند من أهدافها الأساسية تعليم اللغة العربية، كلغة حية متدفقة بالحيوية وخصوبة الفكر، وزاخرة بالأدب الرفيع والثقافة العالية، وعنوا بها كثيرا، ولكن مضت فترة لم تتهيأ لهم مقررات ومناهج مجدية ومستقلة مع إنشاء دار العلوم كنموذج مثالي لها، ولما تسلم رئاسة ندوة العلماء الدكتور

■ الشيخ أبو الحسن في الملتقى الدولي الأول للأدب الإسلامي في وجده ـ المغرب.

الشيخ أبو الحسن الندوي.. وتطور اللغة العربية وآدابها

عبدالعلي الحسني رحمه الله، وكان قد نهل من المناهل القديمة والحديثة، وعرف مطالب العصر وحاجاته، وأيقن بأن اللغة العربية هي لغة المستقبل، فلابد من العناية بها وإتقانها، ونيل القدرة التعبيرية فيها كتابة وحديثا، وقد كان العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله يشعر بمثل ما يشعر ويقدر؛ فوافق هوى في نفوس هولاء القائمين بإنعاش الروح العلمية والأدبية في حرم دار العلوم، فاهتموا بها، وحالفهم الحظ بأن انتخب من بين الأساتذة الأكفاء سماحة الشيخ أبي الحسن على الندوي مدرسا للتفسير والأدب العربي، وكان قد قرأ على أستاذين عربيين هما الشيخ خليل اليماني والدكتور تقي الدين الهلالي، أخذ منهما التذوق الأدبي والقدرة البيانية والتعبيرية في اللغة، وكان قد ورث من آبائه التعبير بواسطة اللغة والأدب، وإعداد الجيل الناشيء للمكارم والمآثر والآداب الزكية الطاهرة والأخلاق النبيلة، فألقى نظرة على المناهج والكتب الدراسية العربية والمصرية، وكانت جيدة، ولكنها كانت خاضعة للظروف والأوضاع والأوساط التي ألفت فيها هذه الكتب، فلم تكن تفي بحاجة الطلبة الهنود، ولم تكن تسترعي انتباههم، لأنها لم تكن أليفة ومعروفة لديهم، والإنسان بطبعه مجبول على ما يشعر ويرى ويشاهد، فعقد العزم على تطوير اللغة والأدب العربي، وإعداد منهج أدبي مفيد للطلبة الكبار والصغار، نظرا لما كانت حركة ندوة العلماء ترى وتحلم، وكتب الشيخ الندوي رحمه الله يقول :

«وكانت ترى (ندوة العلماء) تعليم اللغة العربية كلغة حية نابضة، يخاطب بها العرب أنفسهم، وتكون وسيلة الدعوة الإسلامية فيهم» وتنشأ في طلاب المدارس العربية وخريجيها ملكة الخطابة والإنشاء والتحرير، وقد أنشأت هذه الحركة لأجل هذا الغرض، ولتحقيق هذه المشاريع والخطط، وعرض نموذج حي لذلك أمام المدارس الإسلامية في الهند دار العلوم المركزية التابعة لها في لكهنؤ عام ١٣١٢هـ باسم «دار العلوم ندوة العلماء» (فى مسيرة الحياة ج١ ص٣٩ ـ ٤٠).

وبما أن سماحة الشيخ رحمه الله كان يدرس الأدب العربي، فقد بدأ بإعداد مجموعة من نصوص النثر من العصر الإسلامي الأول إلى العصر الحديث في جزأين اثنين باسم «مختارات من أدب العرب» تلقاه الناس بالقبول، وحظي بانتخابه في المقررات الدراسية في بلادنا والبلاد العربية وبلاد الشام بخاصة، كما حكي عنه أديب العربية الكبير والمفكر الإسلامي العظيم الأستاذ علي الطنطاوي فيقول : «إذا كان الدليل على ذوق الأديب اختياره، فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية لنتخير واحدا منها، نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام، وذهب كل واحد من أعضاء اللجنة ـ وكلهم من الأدباء ـ يبحث ويفتش، فعدنا جميعا وقد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية، وأجمعها بفنون القول وألوان البيان، مختارات أبي الحسن (مقدمة المسلمون في الهند) «ولما طبع الكتاب في دمشق عام ١٩٥٧م أخذ كاتب هذه الأسطر نسخة منه، وقدمه إلى علامة الشام والعضو المؤسس للمجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) وأستاذ الأدب وعلوم القرآن في الجامعة السورية (جامعة دمشق) فضيلة الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله، فبدأ يقلب الصفحات ويهتز ويطرب، ويثني على جودة الاختيار، وحسن التذوق الأدبي للمؤلف، وكان هذا الكتاب ومقدمته البذرة الأولى للدعوة إلى حركة الأدب الإسلامي.

وكان قد بدأ سماحة الشيخ رحمه الله بإعداد منهج دراسي للأطفال، واعتنى بأدب الأطفال خاصة، وكان الأمر قد شغل باله؛ لأنه كان من أعسر الأعمال وأصعبها وأهمها في نفس الوقت، فأخذ يعد هذه السلسلة «قصص النبيين للأطفال» في ثلاثة أجزاء، ثم ألف الجزء الرابع بعد فترة من الزمن، وأتم السلسلة لهذه القصص بكتابه عن سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم في ذى القعدة ١٣٩٧هـ اكتوبر ١٩٧٧م، وكان قد أكمل سلسلة «القراءة

الجلسة الافتتاحية للملتقى الدولي الثاني للأدب الإسلامي في الدار البيضاء ـ المغرب.

الراشدة» ثلاثة أجزاء بعام ١٩٤٤م، وقال عن هذه المجموعة للأطفال :

«وقد شعرت بعد بدئي بهذا العمل، بأن الله تعالى ألانه ويسره لي، فكنت أكتب عفوا مرتجلا من دون كلفة حتى كأنني أتكلم، وقد التزمت فيه بأربعة أمور :

١ ــ أن تكون ثروة الألفاظ فيه أقل قليل، ولكنها تنقش في ذهن الطالب بكثرة التكرار والإعادة.

٢ ــ أن يكون الكتاب في لغة القرآن، وتوضع الآيات الكريمة في محالها كالفص في الخاتم.

٣ ــ أن يشتمل على تعليم العقائد الأساسية (التوحيد، والرسالة، والمعاد) وتلقينها للطالب بطريقة عفوية.

٤ ــ أن تبسط القصص وتزود الأطفال بما يكره إليهم الكفر والشرك والمعاصي، وتحبب إليهم الإيمان والعقيدة، وترسخ فيهم الاعتقاد بعظمة الأنبياء وجلالة مكانهم، وكل ذلك بطريق لايشعر الطالب بثقله وأنه يلقى عليه، بل يتلقاه ضمنا وعفوا وينسجم معه» (في مسيرة الحياة ج١، ص١٤٥).

لقيت هذه المجموعة القصصية حظوة وقبولا لدى المعنيين بأدب الأطفال، وتعليمهم وتربيتهم، وفي الطليعة كان الأديب الألمعي الكبير الأستاذ سيد قطب رحمه الله الذي كان قد أعد بمساهمة بعض زملائه قصصا للأطفال، فقد مارس العملية بنفسه، فيقول في تقديمه لهذه المجموعة :

«لقد قرأت الكثير من كتب الأطفال ــ بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ــ وشاركت في تأليف مجموعة «القصص الديني للأطفال» في مصر، مأخوذا كذلك من القرآن الكريم، ولكني أشهد في غير مجاملة أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصص التي بين يدي، جاء أكمل من هذا كله، وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها، ومن تعليقات الصغار والكبار.

جزى الله السيد أبا الحسن خيرا، وزاده توفيقا، وهدى به الأجيال الناشئة التي تحيط بها العواصف والأعاصير، وتُنشر في طريقها الأشواك، وتُدْلَهمّ من حولها الظلمات، وتحتاج إلى الهدى والنور والرعاية والإخلاص في حياتها ورعايتها، ومن الله التوفيق».

وتقدمت معاهد ومدارس في المملكة العربية السعودية والبلدان العربية الأخرى، فقررت هذه المجموعة القصصية في مناهجها الدراسية، وكان الجزء الأخير «خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم» يدرس في شعبة تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وقد صاغ سماحة الشيخ الندوي رحمه الله مجموعة أخرى من حكايات الصحابة رضي الله عنهم، في لغة سهلة وأسلوب عذب باسم «قصص من التاريخ الإسلامي» للأطفال، مراعيا فيها عقلية الأطفال ومستواهم، بحيث يستسيغونها بدون سآمة وملل، والمجموعة كلها بالإجمال تتمثل في تهيئة أجواء ملائمة للتذوق والتشويق، والتقريب والتعود على القراءة والتعلم، بجنب رفع الروح المعنوية والخلق النبيل والعقيدة القويمة، وإن طريقة التكرار والإعادة وضرب الأمثلة أجدى نفعا في مثل هذه السن المبكرة من الأسئلة المتراكمة، والتمارين المكدسة، والتدريبات المثقلة، بحيث يقع الطفل بمثل هذه الأعمال المنزلية في إرهاق شديد، وتعقيدات يطير بها عقله وفكره، فقد لاحظنا في قراءة هذه القصص بعبارات متكررة معادة تتخللها آيات قرآنية أوفر فائدة وأجدى نفعا، وصارت كالمسك إذا كررته يتضوع.

إنها نظرة إجمالية سريعة على ما قدم سماحة الشيخ السيد أبي الحسن على الحسني الندوي رحمه الله تعالى من خدمات ومساهمات في تطوير اللغة العربية وآدابها في الهند، وكانت لها صدى في الأوساط الأدبية واللغوية بمدارس الهند وجامعاتها وبخارج الهند أيضا، فجزاه الله عنا نحن طلاب اللغة العربية وآدابها خيرا ورضيه وأرضاه، وهو نعم المولى ونعم النصير.